

شيرين: إلى القدس من جنين المشهد والرسالة

أ.د. سعيد أبو علي

المشرف العام ورئيس تحرير مجلة المقدسية

في الحادي عشر من أيار 2022، بمخيم جنين، استشهدت الصحافية الفذة شيرين أبو عاقلة مراسلة قناة الجزيرة لربع قرن من الزمان.. تلك الفتاة المقدسية الجميلة، وادعة الملامح، موضوعية القول، حازمة الموقف، الشجاعة إلى حدّ المجازفة، المهنية المحترفة باقتدار، الميدانية التي لا تتوقف عن النشاط، إلى الحدّ الذي تجاوز فيه أداؤها مستوى التميز المهني، إلى الإيمان الأعمق، بما هو أبعد من الرسالة ذاتها، وهو هدف وغاية هذه الرسالة، المتمثل في إيمانها بقضية شعبها والتزامها بالدفاع عنها.

فكان أن نذرت نفسها لقضيتها، وجعلت من وظيفتها أداة للدفاع عن هذه القضية، بكل ما مكنتها تلك الوظيفة في قناة الجزيرة، من فرص وأفاق، ومن مساحات تأثير وانتشار وإمكانات، كان ذلك التوظيف المتبادل، بين القناة الفضائية والفتاة الإعلامية، لخدمة القضية الفلسطينية ببراعة،

قوامها البساطة والصدق والموضوعية، وذكاءٍ عماده التواضع دخلت قلوب الناس لمخاطبة عقولهم، تحدي الأوقات والأماكن، بنكران الذات إعلاءً للغاية، حددت شيرين مهمتها، في توثيق وكشف جرائم الاحتلال ضد شعبها وتقديمها للعالم، في عرض معاناة الناس تحت الاحتلال والتعبير عن أوجاعهم، واقفهم وحقهم، صمودهم ونضالهم وتضحياتهم، وطموحاتهم، بالمعايير الإنسانية والقانونية، بمعايير الشرعية الدولية والحقوق الوطنية، تأكيداً على الحق، وترسيخاً للحقيقة، وتأصيلاً للرواية الحقيقية للصراع، منذ إقامة دولة الاحتلال. تلك الرواية التي كانت شيرين أحد روايتها، وأحد الشهود في تطور وقائعها، ومحاولات الاحتلال تشويهها وطمسها وإحلال روايته الأسطورية بديلاً لها.

وكان ذلك وراء اغتيال شيرين، كان اغتيالاً للحق والحقيقة، واستمراراً لمحاولات وأد الرواية الفلسطينية العربية الحقيقية.

واليوم نبادل العزاء بشيرين، عائلتها، وشعبها وأمتها. غير أن الواجب يقتضي، التقدم إلى كل منتسبي مهنة الصحافة؛ هذه المهنة النبيلة، وأطرها العربية والدولية الحرة، بأحر التعازي.. ثقة وقناعة، بأن شيرين، لم تكن الإعلامية الفلسطينية المتميزة فحسب، بل كانت أيضاً تجسّد باقتدار، الإعلامية العربية، تجسيدها للمرأة الفلسطينية العربية، قدرةً ونضالاً، هويةً وانتماءً وعطاءً.

فطوبى لنساء فلسطين، طوبى للمرأة العربية المكافحة.. وللحركة النسوية العربية عامة، نُقدم واجب العزاء بشيرين. كما نُقدمه لأحرار العالم، رجاله ونسائه، لكل الذين فقدوا برحيلها أحد أصوات الحرية والحق والعدل والسلام، العالية..

لقد شاهد وتابع العالم بأسره، فاجعة اغتيال شيرين أبو عاقلة، التي جرت بالمكان والزمان والكيفية، على مرأى من هذا العالم بكل بشاعتها (جريمة متكاملة الأركان) منذ طلقة الاحتلال القاتلة بمخيم جنين، ومحاولاته تسويق رواية مخترعة يُكذبها الواقع والحقيقة، للتحلل من المسؤولية، وصولاً إلى جريمة الاغتيال الثانية في المشفى الفرنسي بالقدس لجثمان الشهيدة، ذلك المشهد المروع لمدى الحقد والكرهية، لمدى الانحطاط والوحشية.

وكان الإجماع دولياً على مهنية شيرين وتميزها، إنسانيتها، وموضوعيتها، وكان الاستفتاء وطني القيم والنضال، لوطنيتها والتزامها كمدافعة عن الحق والحقيقة، عن قضية شعبها، تفضح جرائم الاحتلال، بكشفها عن الرواية الحقيقية. وكانت باستشهادها تُوحّد صفوف شعبها بكل فئاته وقواه وأديانه وطوائفه وأجياله، تقدم الهوية الوطنية الفلسطينية الجامعة، وتُذكي روح الصمود والمقاومة، وتؤكد العمق العربي القومي لقضية شعبها، وتُعزز أوسع تضامن عالمي مع هذه القضية العادلة، وتعيد طرح الموضوع الفلسطيني، ملتهباً على جدول أعمال العالم.

ما أعمق الرسائل، وأبلغ المعاني، التي صاغها استشهاد شيرين، تلحق العار والهزيمة بقاتلها، وتفضح طبائعه ومخططاته، بل تُضيف إلى موازين الحق والعدالة والإنجاز، لقضية شعبها، على طريق النصر والحرية، والاستقلال القريب.

هذا الشعب الأبّي الذي يُواصل صموده ونضاله، ويُقدم التضحيات الغالية بكل سخاء على امتداد العقود الطويلة، إصراراً منه على استعادة حقوقه الوطنية الثابتة وتحقيق النصر. كان يُبادل شيرين بجنازتها التاريخية، كل

حُبُّ وتقديرٍ وامتنان، بوعيه الجمعي وحسّ العفوي. كان مدرّكاً منحازاً مقدراً وفياً، ومكرماً لشيرين ودور شيرين، لمكانة الإعلام والإعلاميين، لمكانة المرأة، وقدسيتها الوطن لكل أبنائه مسلمين ومسيحيين. وها هي الشجاعة الملتزمة شيرين، أيقونة من أيقونات شعب، يكرم باستشهاد ابنته، كل فرسان الإعلام والإعلاميين.

لم تكن شيرين، شهيدة الإعلام الأولى، وهي تنضم لأكثر من خمسين شهيداً من فرسان الكلمة، تضاف إلى سجلات الخالدين، لأكثر من مائة ألف شهيد فلسطيني منذ النكبة، التي نعيش هذه الأيام ذكراها الرابعة والسبعين. وفي مخيم جنين أحد عناوين النكبة واللجوء والإصرار على العودة.. استشهدت بجنين الأبية لتوارى ثرى القدس، مدينتها، عاصمة دولة فلسطين الأبدية.. فكانت القدس تعيش مع جنازة شيرين يوماً من أيام عروبتها انتصاراً على التهويد. وكان مسار جنازة شيرين وتشيعها الشعبي والرسمي يرسم اتجاه بوصلة الشعب، ويحدد معالم الطريق من جنين إلى القدس.

لقد أكدت سلطة الاحتلال، بهذه الجريمة الجديدة، طبيعتها الدموية العنصرية الاستعمارية، وكشفت مدى استهتارها بالروح الإنسانية وحجم مخزونها من الحقد والكراهية، كما أكدت استمرار حربها المنهجية على الوجود والحقوق والمقدسات الفلسطينية، ومحاولاتها البائسة، لتصفية القضية، واغتيال الحق والحقيقة، شهودها ورواتها، لمحاولة تغييب الرواية الأصلية الحقيقية، لهذا الصراع الطويل.

وذلك ما يستحضر في الذكرى الرابعة والسبعين للنكبة، محاولات سلطات

الاحتلال، لتقويض وكالة الأونروا، الشاهد التاريخي الحيّ على النكبة، من حيث أن الأونروا، وعدا عن كونها عنوان الالتزام السياسي والإنساني الدولي بقضية اللاجئين الفلسطينيين، فإنها الشاهد الدولي على سرقة وطن وتهجير شعب بالقوة الجبرية وحافطة الرواية الحقيقية للنكبة الفلسطينية، التي بقيت هدفاً محدّداً، لمحاولات إسرائيلية متواصلة، لإنهاء وجودها بالتحريض والتشويه والافتراء.

نستحضر بهذه المناسبة مأساة ليست ككل المآسي والذكريات، إنها مسيرة أربعة وسبعين عاماً من الكفاح اليومي المتواصل، السخيّ بالتضحيات، لشعب اغتُصبت أرضه، وشُرِّد في المنايف ومخيمات اللجوء داخل وخارج وطنه، في محاولة ومؤامرة لإزالة اسم دولته «فلسطين» من الخارطة السياسية والجغرافية. ومن المفارقات التاريخية المفجعة حقاً أن تأتي هذه النكبة عام 1948 بعد أعوام قليلة من نهاية الحرب العالمية الثانية والانتصار على الفاشية والنازية، ويوم كان المنتصرون يعلنون عن إقامة نظام عالمي جديد بإنشاء هيئة الأمم المتحدة وميثاقها، الذي يؤكد على حق الشعوب في تقرير المصير وعدم جواز الاستيلاء على أرض الغير بالقوة، ومبادئ سامية وعادلة أخرى، ما يثير التساؤل: أين هي هذه المبادئ، أين هي الأمم المتحدة من مظلمة فلسطين التاريخية؟.

ما جرى ويجري هو للأسف التكرار لكل تلك المبادئ فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني، لتصبح فلسطين الضحية منذ إنشاء الأمم المتحدة، وتنفيذ الخطط والمشاريع الاستعمارية الصهيونية لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بعهد عصبة الأمم، لتبدأ بعدها سلسلة طويلة من المجازر

الدموية البشعة لاقتلاع وتهجير وتشريد أصحاب الأرض في سياق تنفيذ المخططات المنهجية للتطهير العرقي، والاستيلاء على الأرض والممتلكات بقوة السلاح واستباحة الأرواح والمقدسات، وأبسط المبادئ القانونية والإنسانية.

هذه الجرائم المروعة، التي وبعد مرور أكثر من سبعة عقود على نكبة الشعب الفلسطيني، والتي لا يزال هذا الشعب يعيش آثارها وتداعياتها، مازالت متواصلة على مرأى ومسمع من العالم، بتنوع وسائلها وأدواتها، إذ يتعرض الشعب الفلسطيني لعدوان إسرائيلي مستمر يستهدف وجوده وأرضه وحقوقه ومقدساته بمواصلة القتل والتكيل والاعتقال، والتطهير العرقي وإقامة المستوطنات، ومحاولات طمس للهوية العربية الفلسطينية، ولازال الشعب الفلسطيني منذ بداية النكبة صامداً يقاوم بعزم وإصرار عنيد مهما بلغت التضحيات ومرت السنون، وسوف يبقى لاستعادة حقوقه المشروعة في العودة والحرية والاستقلال.

فإذا ما كانت النكبة مستمرة بالاستهداف والعدوان الإسرائيلي المستمر، وتخاذل النظام الدولي عن حماية مبادئه وقوانينه وعجزه عن تطبيق قراراته جراء هذه الازدواجية المزمنة في المعايير، واستمرار سياسة التمييز والكيل بمكيالين، فإن صمود الشعب الفلسطيني ومسيرة كفاحه العادل بدعم أمته وأحرار العالم سيتواصل بصلاية وإصرار، ولن تضعف من عزيمته شراسة العدوان، ومرارة الخذلان، بل ستزيده قوة وبسالة في الدفاع عن وجوده وحقوقه.

واليوم تُصعدُّ سلطات الاحتلال الإسرائيلي من عدوانها وتواصل ارتكاب

الانتهاكات الجسيمة والجرائم المنظمة الواسعة ضد الشعب الفلسطيني، والإمعان في القتل والقمع والتشريد والاعتقال، في الاستيطان والتهويد والاعتداء على المقدسات وتدنيها في الحرم الإبراهيمي، وكنيسة القيامة، والمسجد الأقصى المبارك بالعنف والإرهاب المنظم، انتهاكاً صارخاً للقانون والشرعية الدولية.

إنها استمرارية النكبة، المؤكدة باستمرار وتواصل أدوات ووسائل النكبة، وجرائم النكبة في سلوان وحي الشيخ جراح في القدس وفي النقب حين هدمت قرية عراقيب 202 مرة ومسافر يطا بالخليل، حيث تزعم سلطة الاحتلال هدم اثنتي عشرة قرية فلسطينية وتشريد أكثر من أربعة آلاف مواطن.. إنها جرائم التطهير العرقي والأبارتهيد والاستيطان الاستعماري الذي تكثف بصورة غير مسبوقه لسرقة الأرض والاستيلاء عليها، حيث تمت المصادقة مؤخراً على بناء أربعة آلاف وحدة استيطانية جديدة.

تلك الجرائم الموثقة، التي طالما سجلتها شيرين بالصوت والصورة، والتي طالما رفضتها وأدانتها دول ومنظمات العالم، بما فيها المنظمات المختصة، وصنفتها جرائم حرب ضد الإنسانية، وفق أحكام القانون الدولي. الأمر الذي نقدره ونشكره، ولكنه يثير التساؤل في الوقت نفسه، حول جدية ترجمة هذه المواقف المعلنة، بملاحقة ومساءلة الجناة، وعدم إفلاتهم من العقاب، الذي كان ولأمد طويل، محفزاً لهم لمواصلة ارتكاب جرائمهم، بل والتمادي في ارتكابها.

وهو التساؤل المشروع حول جدية المجتمع الدولي، ممثلاً بمنظماته وخاصة مجلس الأمن، في تبني معايير القانون الواحدة، والانتهاء من الكيل بمكيالين

والتمييز والمعايير المزدوجة، الذي حال دون إنفاذ قراراته ذات الصلة بالقضية الفلسطينية، رغم الفيض الكبير من قرارات الشرعية الدولية، المواكبة لضراوة العدوان وجسامة الانتهاكات الإسرائيلية، لحقوق الشعب الفلسطيني. تلك الحقوق التي أفرّتها وكفلتها ذات المنظومة الدولية...

في هذا السياق، وإذ نُعرب عن عميق التقدير، للمواقف الدولية المنددة باغتيال شيرين أبو عاقلة، والمطالبة بالانتصاف لها أمام العدالة الدولية، فإن تحقيق العدالة لشيرين، لن يكون فقط، بتشكيل لجنة التحقيق المستقلة، المطلوب تشكيلها بكل تأكيد، أو بتقديم ملف الجريمة لمحكمة الجنايات ومجلس حقوق الإنسان فحسب، على أهمية ذلك وضرورته المؤكدة، بل بتأكيد تقديم الجناة، ومرجعياتهم القيادية، للقضاء الدولي الناجز. ومساءلة الاحتلال عن كل جرائمه ووضع حدّ لها بتوفير الحماية الدولية.

كما أن العدالة لشيرين، لن تنتهي بهذا المستوى من الإنصاف، بل بتحقيق العدالة للشعب الفلسطيني بإنهاء الاحتلال أساس الداء والبلاء، وتمكين الشعب الفلسطيني من حريته وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس.

إن الصراع العربي الإسرائيلي، يبقى التحدي الأول لأمتنا العربية، وجوهر كل القضايا، وسبب حالة عدم الاستقرار التي تعيشها المنطقة، طالما لم يتم التوصل إلى حل عادل ودائم لهذا الصراع، وفق مبادئ وقرارات الشرعية الدولية، ومبادرة السلام العربية. الأمر الذي يستدعي في المقام الأول، التأكيد على مسؤولية الأمم المتحدة ومنظماتها ذات العلاقة، وضرورة تفعيل دور هذه المنظمة الدولية، في دعم الحق المقدس والشرعي للشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وإقامة دولته المستقلة.

لقد حان الوقت لينال الشعب الفلسطيني حريته واستقلاله، كي يعيش كبقية شعوب الأرض حراً فوق أرضه ووطنه المستقل، وحان الوقت لأن يعمل المجتمع الدولي على إنهاء ظلم تاريخي وتصويب مسار دولي لتحقيق هذا الهدف المشروع، والعمل على تدعيم فرص السلام والاستقرار في المنطقة. لقد حان وقت انتقال مجلس الأمن من واقع العجز والاكتفاء بإدارة الصراع إلى اتخاذ ما يلزم من إجراءات سريعة وكفيلة بإخضاع سلطات الاحتلال الإسرائيلي للقانون ولقرارات الشرعية الدولية.. حان وقت تحرك المجتمع الدولي لإنفاذ قراراته ذات الصلة بعيداً عن المعايير المزدوجة والكيل بمكيالين، سبباً في تحقيق السلام العادل لاستعادة الشعب الفلسطيني لحقه في العودة إلى وطنه وبناء دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشرقية، الأمر الذي يمثل البوابة الرئيسة في طريق السلام والاستقرار في المنطقة والعالم.